(١٦)

زيارتان

من المحقق (١) أن حظ الأزهر من الرعاية أعظم جدا من حظ الجامعة المصرية فى هذه الأيام ، لا بالقياس إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ، فهو يرعى مرافق مصر كلها بما ينبغى لمقامه السامى من العدل والعطف والبر بشعبه الكريم عليه ، المخلص له ، بل بالقياس إلى الحكومة التى لا تتنزه عن الأثرة (٢) ، كما أنها لا تتنزه عن الإيثار . وقد تعلم أنت كما أعلم أنا أن رئيس وزرائنا هو حامى الدين ، والذائد عن الإسلام ، والأثير عند الشيخ الأكبر مهما تختلف الظروف وتتبدل الخطوب . والذى لا يأتى عملا إلا التمس له الشيخ الأكبر تأييداً أو تخريجا فى كتاب من كتب الفقه ، أو سفر من أسفار الأصول .

وحكومتنا — كما تعلم أنت وأعلم أنا — حكومة تقليد ، لا تجديد ، قامت لتحقيق غرض واحد ، هو أن ترد مصر والعالم الإسلامى إن استطاعت إلى سماحة الإسلام وطهارته ، وأن تمحق البدع محقا ، وتمحو الإلحاد محوا . فلا غرابة فى أن تؤثر الأزهر بالعناية والرعاية ، وتنكب الجامعة ما استطاعت إلى التنكيل بها سبيلا . فإن أعياها ذلك وضعت الجامعة منها موضع المغضوب عليه ، المزهود فيه .

ولست أريد الآن أن أذكر ما ربح الأزهر ، أو بعبارة أدق ما ربح الأزهريون من عطف الحكومة على الأزهر ، وما خسرت الجامعة والجامعيون

---

(١) ٢٩ — ٣ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٤٨

(٢) الأثرة : حب الذات أو الأنانية ، والفعل أثر ، والإيثار أن تقدم غيرك على نفسك وفعله آثر ؛ وتؤثر الأزهر أى تخصه ، والأثير : المفضل .

من غضب الحكومة على الجامعة . فقد يكون لهذا يوم قريب . وإنما اقف عند شيء واحد ، لا أعدوه ، ذكرته حين قرأت ما نشرته الصحف من وصف الزيارة الملكية لكلية أصول الدين أمس .

فى أواخر فبراير من السنة الماضية ، تفضل جلالة الملك فشرف الجامعة بزيارته الكريمة . فلما شرف كلية الحقوق والآداب والمكتبة تفضل فذهب إلى سرادق الجامعة حيث سمع النثر والشعر ، وحيث تفضل فوزع بيده الكريمة بعض شهادات الدرجات الجامعية العلمية والتشريفة(١) على أصحابها .

ولاحظ الناس يومئذ أن الجامعة(٢) لم يسمع لها فى هذا الحفل صوت ،

---

(١) المراد الدكتوراة الفخرية .

(٢) زار الملك فؤاد كلية الحقوق ودخل المدرج الأيسر حيث كان طلبة السنة الثالثة جالسين يتلقون درسا فى الشريعة الإسلامية من الشيخ أحمد إبراهيم وكيل الكلية . ولما أذن لهم بالجلوس وقف الطالب حسن بغدادى وألقى كلمة ترحيب نيابة عن إخوانه . ثم أخذ الأستاذ يشرح الدرس وكان موضوعه « تطور حالة الميراث من عهد الجاهلية إلى ما استقر عليه الرأى فى الأسلام »

وبعد أن وقف الملك قليلا مستمعا إلى الدرس توجه إلى المدرج الأيمن حيث كان طلبة السنة الأولى يستمعون لمحاضرة من الأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى فى القانون المدنى عن تطور العقد باعتباره سببا من أسباب الملكية تحت تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية .

وفى كلية الآداب دخل أحد المدرجات حيث كان الشيخ مصطفى عبد الرازق يلقى محاضرة فى الفلسفة الإسلامية عن الفارابى . كما استمع لمحاضرات بعض المستشرقين . وأخيراً توجه إلى السرادق الذى أقيم لهذه المناسبة . وقدم وزير المعارف للملك سفرا ألفه أحمد شوقى عن أمراء العرب وملوك الإسلام . ثم قدم الوزير الأستاذ على الجارم لإلقاء قصيدة من نظم أحمد شوقى ومما جاء فيها :

تـاج البلاد تحيـة وسـلام ردتك مصر وصحت الأحلام
العـلم والملك الرفيع كلاهمـا لك يا فـؤاد جـلالة ومقام =

وإنما سمع وزير التقاليد يخطب بصوته العميق العريض فيطيل ، وسمع مفتش من وزارة المعارف ينشد قصيدة لشوقى رحمه الله . وتفضل صاحب الجلالة فزار كلية من كليات الأزهر أمس فلم يسمع فى هذه الزيارة لغير الأزهر صوت . لم يسمع صوت التقاليد فى عمقه وعرضه . ولم يقل مفتش من وزارة المعارف شعرا ولا نثرا. ومن الناس من يظن أن مصدر هذا الاختلاف

= فكأنك المأمـــون فى سلطانه فى ظلك الأعلام والأقـــلام

ومنها :

من آل إسماعيل لا العمات قد قصرن عن كرم ولا الأعمـــام

وقد قوبل هذا البيت بتصفيق حاد متواصل . وكانت الأميرة فاطمة إسماعيل قد تبرعت للجامعة بالأموال ووقفت عليها أرضا زراعية مساحتها ٦٢١ فدانا وستة أفدنة بالدقى .

ومنها :

لم يعط همتهم ولا إحسانهم بان على وادى الملوك همـــام
وبنى فـــؤاد حائطيه يعينه شعب عن الغايات ليس ينام

وقد قوبل هذا البيت بتصفيق حاد متواصل . والقصيدة فى ٥٣ بيتا . ثم ألقى على الجارم قصيدة جاء فيها :

دعوت بيانى أن يفيض فأسعدا وناديت شعرى أن يجيد فغردا

ومنها :

مليك حبته مصر محض ولائها صميما وأولى مصر عزا وسؤددا
رويدك أجهدت المؤرخ ما ونى ولا فارقت يوما يراعته اليـــدا

وهى فى ٣٧ بيتا .

وبعد أن فرغ الجارم من إنشاد شعره ، دخل موكب جامعى بالملابس الجامعية ، وتسلم كل منهم شهاده الدكتوراه الفخرية ، نذكر منهم محمد توفيق رفعت باشا وعلى ماهر باشا ، وعبد العزيز فهمى باشا ، وعبد الحميد بدوى باشا . ومن كلية الآداب عبد الوهاب عزام أفندى . ومن الطب الدكتور على باشا إبراهيم وبعض زملائه من كلية الطب .

أن الأزهر كان أحرص من الجامعة على أن يتكلم بين يدى حامى الأزهر ومنشىء الجامعة ، ولكن هنا يجب الإنصاف ، وهنا يجب أن يكتب التاريخ .

فقد أرغمت الجامعة إرغاما على أن لا تتكلم لأسباب يعرفها وزير التقاليد ووكيله والذين كانوا يرقون إليه بالكيد ، وينزلون عليه بالوحى . واستقال مدير الجامعة ، أو هم أن يستقيل . وتعب عمداء الجامعة فى هذا تعباً شديدا ، وسعى وكيل الجامعة فى هذا سعيا معقدا ملتويا طويلا . وانتهى مدير الجامعة إلى أن نزل لوزير التقاليد عن الكلام بين يدى صاحب الجلالة . فتكلم وزير التقاليد وبرع فى الكلام ، وقال وزير التقاليد فأطال القول ، وانتهت الزيارة ، وانصرف الناس ، وبعضهم يتحدث إلى بعض بأنهم قد أقبلوا يستمعون لمدير الجامعة ، فإذا هم يستمعون لوزير المعارف . ويتنبأ بعضهم لبعض بأن منع الجامعة من الكلام بين يدى منشىء الجامعة لا يدل على خير وكان بعضهم يسبق الحوادث أيضا فيرى فى منع الجامعة من الكلام نذيرا بأنها ستمنع من العمل قليلا أو كثيرا . وكان بعضهم يسبق الحوادث أيضا فيرى فى إنشاد مفتش من وزارة المعارف للشعر فى حفل جامعى نذيرا بأن يد وزارة المعارف ستنبسط فى الجامعة والجامعيين حتى تخضع الجامعة لوزير المعارف ووكيله والذين يرقون إليه بالكيد ، والذين ينزلون إليه بالوحى .

ولم تمض أيام أربعة حتى كان من أمر الجامعة ما كان ، ولم يتم العام دورته حتى غير قانون الجامعة فقصت أجنحتها ، وحيل بينها وبين العمل الجامعى الصحيح . وفى أثناء هذا العام ، أقصى من الجامعة من كرههم الوزير ووكيله والذين يرقون إليه بالكيد ، والذين ينزلون عليه بالوحى . وضيق على الذين لم يكرهوا ولم يخافوا ، ولكنهم وضعوا موضع الشك والريب. ووسع فيها على الذين عرفوا كيف يدورون حول الأقطاب فى القمة والحضيض وجرت أمور الجامعة أو مشت أمور الجامعة — كما علمت — متعثرة ، مشى المقيد فى الوحل كما يقول مسلم بن الوليد .

أما الأزهر الشريف فأظن أن أحدا نازع شيخه(١) الأكبر فى الكلام بين يدى زائره الكريم ، وتعليل ذلك يسير . فكلام الشيخ الأكبر بين يدى صاحب الجلالة المصرية أهون على الله والناس من أن يخاف أو يحسب له حساب .

وشخص الشيخ الأكبر أبين عودا ، وأشد مرونة من أن ينكره رئيس الوزراء ، أو يحاول التخلص منه . وقد بذل الشيخ الأكبر من الجهد والقوة فى تأييد رئيس الوزراء وأعماله وأقواله وآرائه ما لم يبذل مثله مدير الجامعة السابق . وطمع رئيس الوزراء من شيخ الأزهر فيما لم يطمع فى مثله من مدير الجامعة السابق . فما الذى يمنع حامى الإسلام أن يخلى بين شيخ الإسلام وبين الكلام ؟

ولا تقل إن شيخ الأزهر رجل دين فيجب أن يتكلم ، لأن الوزراء

---

(١) بعد مظاهرات المواطنين فى الإسكندرية فى ١٥ — ٧ — ١٩٣٠ التى سقط فيها ٢٥ قتيلا ونحو ٤٠٠ جريح ، أصدر الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر ، وأحمد نصر شيخ المالكية وعبد المجيد سليم شيخ الحنفية بيانا موجها إلى الأمة المصرية ، وذلك بإيعاز من الملك فؤاد ، ومما جاء فيه :

« أيتها الأمة الكريمة . إن العبث بالنظام العام ، والتحريض على القطيعة والتدابر ، وإحداث الفتنة والشغب لمن أكبر الجرائم وأبشع المناكر التى تأباها الفطر السليمة ، ويحرمها الدين القويم . من أجل ذلك ننصح لأولئك الذين يندفعون إلى العبث بالنظام العام أن يخلدوا إلى السكينة »

وقد نظر الشعب إلى هذا البيان بامتعاض شديد ، لأنه يطلب من الأمة أن تستسلم للإنجليز وللملك فؤاد ، ولا تطالب بحقها فى الحرية والحياة الكريمة . وهذا شأن رجال الدين المسلمين الذين يتقاضون أجورهم من الحكومة ، فلا عجب أن استهزأ بهم الناس وسخروا منهم . ولا عجب أن سقطت مكانتهم وانحطت منزلتهم ، وباءوا بغضب من الله ومن الجماهير .

لا يحسنون من علم الدين ما يحسن . فانا أؤكد لك أن مدير الجامعة السابق(١) رجل علم ، فكان يجب أن يتكلم ، لأن الوزراء ، وفيهم وزير التقاليد لا يحسنون من العلم بعض ما يحسن . وأنت تعلم أن كثيراً من الوزراء إذا تكلموا لم ينشئوا الكلام ، وإنما أنشىء لهم . وقد أنشئت لوزير التقاليد خطبته يوم الجامعة ؛ فتلاها فى صوته العميق العريض ، فكان من الممكن أن تنشأ خطبة أزهرية للوزير المختص بشئون الأزهر فيتلوها ، ولكن شيخ الأزهر أثير ، ومدير الجامعة لم يكن مرغوبا فيه ، ولكن رجال الأزهر تورطوا فى تأييد رئيس الوزراء ، ورجال الجامعة أبوا أن يكونوا أداة سياسية لرئيس الوزراء ، ولكن رجال الأزهر يريدون أو يرضون أن يكونوا دعاة إلى الرجوع ، وكان رجال الجامعة يريدون أن يكونوا رسل الرقى ، ولكن رجال الأزهر يجدون فى بسط سلطان الحكومة القائمة على الشعب ، وكان رجال الجامعة لا يفكرون فى حكومة ما ، وإنما يريدون تحرير العقل . وتحرير العقل خطر ، لأنه وسيلة الحرية والديمقراطية . وإذن فيجب أن يخفت صوت الجامعة ، ويجب أن يرتفع صوت الأزهر .

وكان فى الجامعة قوم لا يحبون أن تخفت أصواتهم فابعدوا عنها ، وليس فى الأزهر إلا من يحب أن يرتفع صوته إن شاءت الحكومة ، ويخفت صوته إن شاءت الحكومة . فيجب أن يقربوا جميعاً .

ولا تقل إن رجال الأزهر رجال دين فيجب أن تعرف لهم مكانتهم الدينية ، فإن رجال الجامعة رجال علم ، وقد أدوا واجبهم للعلم أحسن

---

(١) كان مدير الجامعة أحمد لطفى السيد حاضراً الزيارة الملكية . ولو أراد أن يتكلم لما منعه أحد . وقد دار الزمان وأصبح طه حسين وزيراً للمعارف ، ووقف خطيبا بين يدى الملك فاروق فى حفلة افتتاح جامعة محمد على الصناعيه فأطرى الملك ومدحه مدحا عظيما . وكان ينتظر أن ينعم عليه بالباشوية ولكنه لم يفعل ، بل قال له « متشكر يا طه بك » وضغط على كلمة « بك » . حدثنى بذلك عباس محمود العقاد فاه إلى فى . ولزم داره مدعيا أنه مريض ، فأنعم عليه الملك بالباشوية فبرىء لساعته ورجع إلى عمله : انظر للمؤلف : طه حسين الشاعر الكاتب »

أداء ، ورفعوا مكانة مصر العلمية وكرامتها فى أقطار الأرض ، ولم يؤد رجال الدين واجبهم الدينى ولا نهضوا منه بشىء .

أتذكر أننا استفتينا شيخ الأزهر فى التمثيل والرقص والغناء ، وما ينفق عليها من أموال المسلمين فى الأوبرا ، وأكدنا لك أن الشيخ سينكر إعانة الأوبرا فى مجلس الشيوخ ، فقد مرت ميزانية وزارة المعارف أمام مجلس الشيوخ يوم الاثنين أى قبل الزيارة الملكية للأزهر بليلة واحدة ، فلم تذكر إعانة الأوبرا ، ولم يسمع صوت الشيخ ، ومن يدرى ؟ لعله تخلف عن هذه الجلسة عمدا ليبرأ ذمته من إعانة التمثيل والرقص والغناء . فغير المنكر بالصمت ، واكتفى بأضعف الإيمان ، ومن يدرى ؟ لعله تخلف عن هذه الجلسة مضطرا ليتمرن على إلقاء خطبته بين يدى صاحب الجلالة ، فآثر حسن الإلقاء على حسن البلاء فى سبيل الإسلام والمسلمين .

لا تقل إن رجال الأزهر رجال دين ، فيجب أن ترعى مكانتهم الدينية فإن رجال الدين لا يسكتون على موت السنوسى(١) ، لأن وزارة مصر الإسلامية أبت أن تأذن له بالاستشفاء فى مصر الإسلامية . إنما رجل دينه هو الحاخام الأكبر الذى لم يتردد فى أن يشارك الإسرائيليين فى الاحتجاج على ما يقال إن اليهود يلقون من الشر فى ألمانيا .

---

(١) كانت حكومة الحجاز قد طلبت من الحكومة المصرية أن تسمح للسيد أحمد الشريف السنوسى بالحضور إلى مصر للعلاج من مرض ألم به ، فلم تتلق رداً من الحكومة المصرية . فأرسلت صحيفة « كوكب الشرق » مندوبا قابل الشيخ فوزان السابق وزير الحجاز المفوض فى القاهرة وسأله عن هذا الموضوع فذكر له أن طلب حكومة الحجاز وصل إلى القاهرة قبل مجىء ملك إيطاليا بيومين ، ورجح الشيخ فوزان أن يكون هذا هو السبب فى عدم رد وزارة إسماعيل صدقى . وقد أقام بعض المصريين صلاة الغائب على روح السيد أحمد الشريف ، كما أقيمت الصلاة على روحه فى برلين . ولزيادة المعلومات عن جهاد السيد أحمد الشريف انظر كتابنا « السلطان حسين كامل »

لا ، ليست(١) المسألة مسألة دين ، ولا مسألة علم ، وإنما هى مسألة سياسية ليس غير . رأت الوزارة فى الجامعة معهدا خطرا على سياسة القهر والتسلط فغضبت عليها.ورأت الوزارةفى الأزهر ، أو قل فى شيوخ الأزهر ، أو قل فى الهيئةالرسمية للأزهر ، أو قل فى شيخ الأزهر مؤيدا لسياستهاهذه ، فرضيت عنه ، وآثرته بالخير . فأما الأمة فإنها تعلم حق العلم أين الذين يؤيدونها وينصرونها ، ويهيئون لها الوسائل إلى الحرية والعزة والكرامة ، فتنظر إليهم فى حب ، وترمقهم فى أمل ، وتعدهم بأن تمنحهم من التأييد ما يمكنهم من المضى فيما هم بسبيله من سعى إلى تحقيق الحرية والعزة والكرامة والاستقلال .

فليهنأ الأزهر برضى الحكومة ، ولتهنأ الجامعة برضى الأمة وغضب الوزراء .